مجلة عصور الجديدة– مصنفة ج- المجلد 9– العدد 3- (نوفمبر) 1441هـ/2019م
ردمد EISSN 2600–6324 / ISSN 2170-1636 / الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

الكتابات الوقفية وأهميتها- وقفية مدرسة العباد بتلمسان أنموذجا.

Endowment wrings and its importance-endowment of OBAD school in Tlemcen as a Mode

المؤلف المرسل: غالم فاطمة Ghalem fatma صص114- 135
طالبة دكتوراه ل.م.د- تاريخ وسيط، مشروع العلم ومؤسساته في بلاد المغارب في العصور الوسطى
قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1 أحمد بن بلة (الجزائر)
gfatima2020@gmail.com
المؤلف 2 : أ.د عبد القادر بوباية Boubaya abdelkader
أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي.
قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1 أحمد بن بلة (الجزائر)
boubaya.abdelkader@univ-oran1.dz

تاريخ استقبال المقال:2019/09/11 تاريخ المراجعة: 2019/09/15 تاريخ القبول:2019/09/17

الملخص بالعربية: اعتنى المسلمون رعية وحكاما بالوقف منذ وقت مبكّر؛ وذلك لأنه من أعمال البر التي حثّ عليها الدين الإسلامي، ورغّب فيها باعتبارها من الصدقات الجارية، وإدراكا منهم أن الوقف هي المؤسسة الأم التي أسهمت في صناعة الحضارة الإسلامية، وقدمت خدمات جليلة في شتى مناحي الحياة، وقد شهد الوقف تطورا وتوسعا مع توالي القرون وتعاقب الدول، وساهم المرينيون بدور مهم في هذا المجال، واتخذوا منه مصدرا شبه دائم للنهوض بمؤسساتهم وبخاصة التعليمية منها، وحرصا على حفظ الوقف وضمان استمراره كان من الواجب كتابته وتوثيقه، وأنتج ذلك ما يسمى بالكتابات الوقفية، التي تعد من المصادر الأصيلة التي لم تحظ بدراسة كافية من قبل الباحثين رغم أهميتها، وعليه عنونا مقالتنا بـ"**الكتابات الوقفية وأهميتها: وقفية مدرسة العُبّاد بتلمسان أنموذجا**، وسعينا من خلالها لبحث الإشكالية التالية: ما أهمية الكتابات الوقفية كمصدر تاريخي؟ للوصول إلى ذلك كان علينا توضيح مفهوم الوقف لغة واصطلاحا، ثم تعريف الكتابات الوقفية، وإبراز محتوياتها وأهميتها، مع التركيز على الأهمية التاريخية، ثم تطرقنا لدراسة وقفية العباد كأنموذج؛ فخلصنا إلى أنّ الكتابات الوقفية مصدر مهم في كتابة التاريخ لأنها تشكل مادة خاما للمؤرخين، ما يسدّ الثغرات الناقصة في كتب التاريخ العام، ويستكمل

الحلقات المفقودة فيه، وأنها تفتح آفاقا لتخصصات جديدة للبحث، كما أنها مصدر مكمل لباقي المصادر الأخرى، وأن وقفية مدرسة العباد كنموذج من الكتابات الوقفية تقدم معلومات غزيرة يمكن للمؤرخ الاستفادة منها في جميع مجالات البحث الخاص بتلمسان، والمغرب عامة.

الكلمات المفتاحيّة: الوقف؛ الأحباس؛ الوقفيّات؛ الحوالات الحبسيّة؛ مدرسة العُبّاد ؛ المغرب الأوسط ؛ التّعليم؛ المؤسّسات التّعليميّة؛ الدّولة الزّيانيّة ؛الدّولة المرينيّة.

ABSTRACT :A long time ago, Muslims as rulers or citizens cared a lot about endowment(AL Waqf) since it was considered charity.Islam asked for and encouraged this activity, because it benefits its doer during and after life.Endowment contributed a lot to the development of the Islamic civilization and also gave great services to Islamic society in different fields. Throughtime; Endowmentdeveloped; Marinians had participated mainly in this field and they used it as an elementary source to supply their institutions especially the educational ones. To protect endowment's continuity ;it was necessary to write and ;this led to the emergence of endowment writings which is an important source that need to be more studied by researchers.

Our article is entitled "**Endowment writings and its importance: endowment of Obbad School in Tlemcen as model,"** and the problematic here is: what is the importance of endowment writings as a historical source? To have an answer we need to clarify the concept of endowment in language and terminology and the definition of endowment writings and especially the historical importance.After that we studied the example of EL Obadwakf as model and haw an researchers benefit from this model? As a consequence; we found that we can't deny the importance of endowment writing about historical events, because these writings carried the raw material and they made the history. The researcher can find lot of facts in these writings and thanks to them researchers can answer many questions and give explanations to several events in history, andcomplementary to the other sources ;and they open new prospects and domains for research due to the unlimited information that they provide about all domains of life :economy, culture ,society ,,,etc. .For instance; the endowment school of AL OBAD in Tlemcen in which the historian can benefit from in order to studyTlemcenin particular and the Middle Maghreb in general.

Keywords : EndowmentWaqf; Retention ahbas; endowments; Obbad school; Retention Remittances; Education in Tlemcen; the middle Maghreb; Education establishments; the Zianid state; the Merinid state.

1- **تعريف الوقف**: للوقف دور مهم في حياة المجتمع الإسلامي لذلك حرص المسلمون على كتابته؛ فنتج عن ذلك ما يسمى بالكتابات الوقفية، والتي تلعب دورا هاما في تدوين التاريخ، وهي لب بحثنا، لكن قبل الغوص في ذلك كان لابد علينا من تحديد معنى للوقف من خلال التطرق إلى تعريفه اللغوي والاصطلاحي.

أ- **الوقف لغة**: يرادف كلمة "الحبس" في أغلب التعريفات اللغوية، منها: "الوقف مصدر قولك وقفت الدابة ووقفت الكلمة وقفا، وهذا مجاز، ووقف الأرض على المساكين، وفي الصحاح للمساكين، وقفا: حبستها، ووقفت الدابة والأرض، فأما أوقف في جميع ما تقدم من الدواب و الأرض وغيرهما فهي لغة رديئة"[1].

وهذا التعريف لا يختلف كثيرا عن تعريف الحبس، ومنها ما جاء في القاموس المحيط: "الحبس: المنع كمقعد، حبسه يحبسه... وقفه صاحبه من نخل أو كرم أو غيرها: يحبس أصله، وتسبل غلته،... والحبيس من النخيل: الموقوف في سبيل الله أي يبقى أصله، ويجعل ثمره في سبيل الله"[2]. وجاء في المعجم الوسيط في الحبس "حبسه، حبسا: منعه وأمسكه، أي وقفه لا يباع ولا يورث"[3].

وتجدر الإشارة إلى أن كلمة الحبس أكثر شيوعا في بلاد المغرب الإسلامي، بينما الوقف كثيرة الاستخدام في المشرق.

ب- **الوقف اصطلاحا:** ذكر الفقهاء تعريفات مختلفة للوقف[4] تبعا لأرائهم في مسائله الجزئية، إلا أن أشمل تعريف للوقف[5] هو: "تحبيس الأصل، وتسبيل الثمرة"[6]، ومما يقوي هذا التعريف لفظا ومعنى، أنّه مأخوذ من كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله لعمر بن الخطاب حين استشاره في أرض له: "**إن شئتَ حبَّستَ أصلها وتَصدقتَ بها**"[7]، وفي رواية "**حَبّسْ أصلها، وسَبّلْ ثَمرتها**"[8]، وسنعرض الحديث كاملا لاحقا.

وبما أن الوقف نوع من أنواع الصدقات وأعمال الخير؛ فهو يستمد مشروعيته من القران الكريم، ومن ذلك الآيات التي تحثّ على الخير والإحسان، وتُرغّب في الإنفاق في سبيل الله ومنها: "لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)[9].

أما مشروعيته من السنة فتظهر في عدة أحاديث نبوية منها: ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: **"إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"**[10].

وحتى يكون الوقف صحيحا من الناحية الشرعية لابد من توافر أركان هي: الواقف[11] والموقوف[12] والموقوف عليه[13] وصيغة الوقف، وهذه الأخيرة تتم بالألفاظ الصريحة للوقف والمتمثلة في "وَقّفتُ، وحَبّستُ، وسبّلتُ"، أو ألفاظ الكناية، وهي ما تحمل معنى الوقف وأهمها: تَصدّقتُ، وحرّمتُ، وأبّدتُ...[14].

ونظرا لأهمية الوقف في الإسلام كان الحرص على حفظه واستمراره عن طريق كتابته وتوثيقه، مستندين في ذلك إلى قوله تعالى: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ**..."[15]، ومن الفوائد المستنبطة من هذه الآية أمره تعالى بكتابة الديون، وهذا الأمر قد يجب إذا وجب حفظ الحق كالذي للعبد عليه ولاية، وكأموال اليتامى والأوقاف والوكلاء[16].

أما مشروعية توثيقه من السنة فتظهر في وثيقة عمر بن الخطاب التي جاء فيها: عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: أصاب عمر أرضا بخيبر؛ فأتى النبي- صلى الله عليه وسلم- يستأمره فيها، قال: يا رسول الله، إني أصبت أرضا بخيبر، لم أصب مالا قط أنفس عندي منه؛ فما تأمرني به؟ قال: "إن شئت حَبَّستَ أصلها وتصدقت بها"، قال: فتصدّق بها عمر، "إنه لا يباع أصلها ولا يُبتاع، ولا يورث ولا يوهب، قال: فتصدّق عمر في الفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضعيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقا غير متول فيه"، قال ابن عون: "فحدثني رجل آخر أنه قرأها في قطعة أديم أحمر"[17]، والظاهر أن الوثيقة كتبت على الجلود المادة الأكثر انتشارا في عصره[18].

ولما كانت الكتابة من أعظم ما تحفظ به المعاملات المؤجلة لكثرة النسيان ولوقوع المغالطات اهتدى إليها المسلمون في معظم تصرفاتهم، ومنها كتابة الأوقاف.

2- تعريف الكتابات الوقفية وأنواعها:

أ- **الكتابة لغة** حسب القلقشندى هي: "مصدر كتب، يقال كتب، يكتب كتبا وكتابا وكتابة ومكتبة وكتبة؛ فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تَكَتّبَ القوم إذا اجتمعوا، ومنها قيل لجماعة الخيل كتيبة،... ومن ثم سمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض، قال ابن الأعرابي: وقد تطلق الكتابة على العلم، ومنه قوله تعالى: **"أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)**[19] أي يعلمون"[20].

ب- **الكتابة اصطلاحا** عند ابن خلدون: "الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس، والكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان"[21].

أما **الكتابات الوقفية** فنسبة للوقف، وهي تلك النصوص التي توثق للوقف، وهي الخط الذي يعتمد عليه في توثيق الحقوق، ويرجع إليه عند الحاجة، وفي كتب النوازل يطلق عليها: نص التحبيس، أو رسم التحبيس، أو وثيقة التحبيس[22]، وتندرج ضمن الوثيقة الإسلامية التي هي صك كتب ليكون حجة في المستقبل لإثبات حق أو التقيد بالتزام، سواء أكان ذلك بين طرفين أم بإرادة منفردة واحدة كالوصية والوقف[23]، وبما أن الكتابة تتأثر بالوسائل المتاحة في كل حقبة تاريخية وحسب التطور المعرفي والإداري توجد أنواع للكتابات الوقفية:

- **كتابات وقفية منقوشة على** الوقف كالمسجد أو المدرسة[24]، والكتابة على الدواب[25]، وهذه الأخيرة تتم عن طريق الوسم[26]، وقيّم ابن القيم هذه النوعية من التوثيق بقوله: "والمقصود أن الكتابة على الحجارة والحيوان وكتب العلم أقوى من هذه الأمارات بكثير؛ فهي أولى أن يثبت بها حكم تلك الكتابة...؛ فإن هذه الأمارات بمنزلة البيّنة والشاهد"[27].

- **كتابات وقفية مخطوطة على الورق** إما أن تكون وثائق فردية أو على شكل حوالات حبسية، وهذه الأخيرة عبارة عن سجلات ودفاتر رسمية، ونقلت وحولت إليها الوثائق الوقفية الفردية، ولذلك سميت بالحوالات الحبسية، وهناك من يرى بأن تسميتها آتية من الحول بمعنى العام، ذلك لأنها تتجدد في كل سنة في أكثر الظروف التي مرت بها الأوقاف، كما أنها تعرض باستمرار للمراجعات والمتابعات، الأمر الذي يدل على اشتقاقها من الحول[28].

وفي مقارنة بين النوعين يقول أحد الدارسين عن الكتابة على الحجر أو الرخام أو الطين: "إنّها تعد من أهم الكتابات الوقفية لما فيها من الإشهار العلني لعامة الناس بتفاصيل الأوقاف، ونوعيته وقيمته المادية، وبيان جهة مصارفه، وبعض تفصيلاته، وتكون معلنة ينظر إليها الجميع سواء المستفيد منها أو غير المستفيد، بخلاف غيرها من أنواع التوثيق كالكتابة على الأوراق والجلود فإنها تبقى محفوظة في سجلات المحاكم غير معلنة على نطاق واسع؛ فلا يطلع على مضمونها إلا أصحاب العلاقة المباشرة بالوقف ومتوليه والخاصة من المستحقين، وتكون أقرب إلى السرية من غيرها[29].

3- عناصرها: مهما كان نوع الكتابات الوقفية فهي عموما تتضمن عناصر أساسية تشترك فيها، مع وجود بعض الاختلافات، وأبرز تلك العناصر ما يلي:

- **الاستهلال**: تبدأ الوقفية في الغالب بـ"بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، بني هذا المسجد للأمير أبي عامر إبراهيم"[30]، وفي أحيان أخرى بـ"الحمد لله بعد أن استقر على ملك الولية الزهرة بنت خليل"[31].

- **الواقف:** ويذكر اسمه وترجمته وألقابه التي اشتهر بها؛ ففي نص تحبيس السلطان أبي حمو موسى الثاني(ت791هـ/1389م)جاء فيه: "أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين أبو حمو ابن مولانا الأمير أبي يعقوب ابن الأمير أبي زيد ابن مولانا الأمير أبي زكريا ابن مولانا أمير المسلمين أبي يحي يغمراسن بن زيان، وصل الله مفاخره، وخلّد آثاره الكريمة..."[32].

- **صيغة الوقف:** تكون بالألفاظ الصريحة أو الكناية؛ ففي وقفية عمر- رضي الله عنه- قال: فتصدق بها عمر، "لايباع أصلها ولا يوهب ولا يورث"[33]، وفي وقفية مدرسة العطارين التي أسسها السلطان أبي سعيد المريني حكم (710هـ-731هـ/1310-1330م)[34]، جاء فيها"...؛ فهذا ما حبس، وأمر بتخطيطه وإنشائه مولانا الإمام أمير المسلمين"[35]. وفي وقفية أبي حمو موسى الثاني: "... تحبيسا تاما مطلقا عاما، ووقفا ثابتا أبديا"[36].

- **الوقف:** تتضمن الوقفية جردا للأملاك الموقوفة، وتحديد طبيعتها وأسمائها ومقدارها وحدودها، وتفاصيل دقيقة عن محتوياتها ومواقعها الجغرافية، مثلا ورد في وقفية مدرسة العطارين: "...برسم المدرسة ... وهي المقابلة سماط العطارين من فاس

القرويين؛ فمن ذلك: ثلاثة عشر حانوتا متصلا بباب الفرج، ومن ذلك دار الصابون مع الحوانيت الثلاثة المخرجة منها بالشراطين، والدار المصرية، وأربعة حوانيت مع الطراز المحمل عليها بعين أصلتين[37].

- **الموقوف عليهم**: جاء في نص تحبيس السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني على مسجد أولاد الإمام: "... على هذه الزاوية المباركة المقامة على ضريح والد المذكور... ليصرف ما يستفاد من الحبس المذكور على معلمي العلم وطالبيه وإمام ومؤذن..."[38].

- **شروط الوقف:** ويظهر ذلك من خلال عدة نوازل ذكرها الونشريسي منها: نازلة "لا يستحق حبس الغير إلا القارئ الذي التزم بشرط الحبس"[39]، وأخرى "الكتب المحبسة ينتفع بها حسبما نص عليه المحبس"[40].

بالإضافة إلى العناصر السابقة تحدد الوقفيات الناظر والشهود والكاتب، وتاريخ كتابتها والتوقيع، ويظهر ذلك خاصة في الوقفيات الحديثة[41]، وعليه فالكتابات الوقفية تتضمن عقد التحبيس الذي يوضح مجموعة من الأركان الأساسية للوقف، وذلك لحمايته من الضياع، والتي تحمل في طياتها العديد من الفوائد خاصة للمؤرخين، ويظهر ذلك من أهميتها.

4- **أهمية الكتابات الوقفية**: إن المعلومات المتعددة والمتنوعة التي تتضمنها الكتابات الوقفية جعلتها من المصادر التاريخية الأصيلة والأساسية لكل باحث يرغب في إضافة مادة علمية جديدة، أو الخروج بنتائج وحقائق علمية لم تكن معروفة، ذلك أن الدراسات التاريخية المبتكرة تعتمد اليوم اعتمادا كبيرا على الوثائق[42]، وتعد من أرقى أنواع المصادر لأن كاتبها أو منشئها لم يرد بها أن تكون شاهدا على التاريخ[43]، بل كان مضطرا للكتابة ولتحقيق أغراض أخرى. وسنحاول إبراز تلك الخدمة التي تقدمها الكتابات الوقفية للمؤرخ في جميع الميادين والمجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية... إلخ.

فهي تعرفنا على الأوضاع الاقتصادية لمناطق مختلفة، وعلى أنواع الزراعات وعدد الحرف والصناعات، وكميات الإنتاج، ووحدات القياس والأسعار، وأنواع العملات المتداولة، والمعاملات المالية وطبيعة النقود واختلاف أصنافها، وما قد يطرأ عليها من انخفاض أو زيادة في القيمة والوزن، وفي المادة المصنوعة منها، وذلك

بالرجوع إلى عقود وعمليات بيع وشراء الأملاك بقصد التحبيس[44]، ومنها نتعرف على نوع العقار وتحديد قيمته، وبالمقارنة يمكن معرفة المناطق المرتفعة الثمن من الزهيدة.

وتفيدنا الكتابات الوقفية في دراسة تراجم الرجال والنساء، ومعرفة تشريفات وألقاب الحكام، وأحوال الناس وطبقاتهم كالفقراء والمساكين، والأرامل وطلاب العلم والغرباء، ورواد المساجد وخدمه والقضاة... كما تفيدنا في دراسة الأنساب وألقاب العائلات وفروعها، وتساهم مساهمة مهمة في الديمغرافيا التاريخية[45].

وتطلعنا الكتابات الوقفية على الحياة العلمية والثقافية، ويظهر ذلك من انتشار الأوقاف على المؤسسات التعليمية كالمساجد والمدارس والزوايا، بالإضافة إلى توقيف الكتب والخزانات، حيث لم يقتصر الوقف على عملية التعليم كونه موردا ماليا له، بل تعدى ذلك إلى طرق جوانب العملية التعليمية كافة، وكانت وثيقة الوقف بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسات التعليمية، حيث تضم الأسس التربوية للتعليم والشروط التي يجب أن تتوافر في القائمين على التدريس، ومواعيد الدراسة وما إلى ذلك من التنظيمات[46]؛ فمثلا جاء في المعيار للونشريسي نازلة "توقيت التدريس بمدرسة إما بنص المحبس وإما بالعادة"[47].

إنّ كثرة الأوقاف على المؤسسات التعليمية يعطي فكرة على انتشار العلم والثقافة، بخاصة إذا أخذنا في الحسبان بأن الواقفين حرصوا على توفير كافة الاحتياجات للطلبة الدارسين في تلك المؤسسات ومدرسيهم، وبالأخص توفير المسكن لهم، وهذا ما يعرف بالمساكن الداخلية في المدارس، والتي تعد أحد مفاخر الحضارة الإسلامية، وكانت عاملا مهما في ازدهار الحياة العلمية والثقافية في العالم الإسلامي، وهناك نازلة توضح من يستفيد من سكن المدرسة[48]. كما تعطي الوقفيات فكرة عن السياسة التعليمية للدولة ومعرفة المكانة التي تبوأها أهل العلم، وتعرفنا على العديد من الوظائف الخاصة بالمساجد والمدارس كالمؤذن والإمام والمدرس والأستاذ والطلبة والقيم والبواب[49]، وهذا يوحي بأن تلك المؤسسات كانت تخضع لتنظيم إداري دقيق.

أما الكتابات الوقفية الخاصة بالكتب والمكتبات فترشدنا إلى جملة من العناصر منها: تاريخ الكتاب- التاريخ المحلي والصلات بين الأفراد- أساليب الكتابة وتطور

استخدام الألفاظ- مؤسسة نظام الإعارة وتطوره[50]، كما تكشف لنا الرؤية البعيدة لتنظيم شؤون المكتبة وترتيب آليات الاشتغال بها والانتفاع من كتبها، والتخصصات العلمية المنتشرة، ويتجلى ذلك مثلا في أحباس السلطان الزياني أبي زيان محمد الثاني (796-801هـ/1393-1398م) الذي: "...نسخ رضي الله عنه بيده الكريمة نسخا من القرآن وحبسها، ونسخة من "صحيح البخاري"، ونسخا من "الشفا" لأبي الفضل عياض حبسها كلها بخزانته التي بمقدم الجامع الأعظم من تلمسان المحروسة"[51].

كما يستشف من الكتابات الوقفية تاريخ المذاهب، ومذهب الواقف في حد ذاته، وعن مدى تدين الواقفين، وتوضح وحدة الأمة والترابط بين أفرادها ودولها[52]، وترد على بعض المفكرين الغربيين الذين يرون بأن التاريخ عبارة عن صفحة سوداء، وسجل لجرائم الإنسان وحماقاته، بل تبرهن بأنه عبارة عن مواقف طيبة وأفعال مباركة وأخلاقيات سامية، وتحاب وتآلف بين مكونات المجتمع، وصفحات من الصبر والتضحية والإيثار، وغير ذلك من المعاني الراقية[53].

وتساهم الكتابات الوقفية في تقديم معلومات جوهرية ومهّمة عن المدن وعمرانها، وما اشتملت عليه من مرافق كالأسواق والحمامات والفنادق والمساجد والزوايا والمدارس، والأضرحة والقصور والأفران، كما تعرّف بمواقعها وأسماء الدروب والأحياء والقرى...، وبذلك فهي تساعد على إعادة تصور الوضع الطوبوغرافي للقرى والمدن، ومعرفة أهمية المواقع التي أقيمت فيها وتخطيطها، والذي غالبا ما يراعي فقه البنيان كتوسط المسجد للمدينة، وتعرفنا على تاريخ الفنون الإسلامية، نظرا لما فيها من عناصر فنية جمالية؛ فهي تصلح لدى المهندسين والخطاطين والمعماريين لجهة خطوط الكتابة وأنواعها وأشكالها وتناسقها وأبعاده[54].

والكتابات الوقفية تعتني بتاريخ الشعوب بجميع طبقاتهم، على عكس المصادر الأخرى التي تؤرخ للزعماء والحكام والسياسيين، وبذلك فهي تسد ثغرة في هذا المجال، من خلال ذكر أسماء الواقفين والشهود، وأفراد الطبقات الدنيا وأوضاعهم، وطرق مساعدتهم كالفقراء والمساكين والأرامل والمرضى والعبيد والغرباء والأسرى...، وهذه الفئات هي الأخرى كان لها دور في تطور الأحداث، ومن خلالها نستطيع معرفة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمنطقة المراد دراستها.

ويتضح من أسماء الواقفين الواردين في الكتابات الوقفية أن المرأة كانت فاعلة في المجتمع وفي جميع الميادين؛ فكانت توقف ويوقف لها، ومنه يستخلص أنه كان لها حرية التصرف في ممتلكاتها ولها ذمتها المالية، ومن أشهر أوقاف النساء وقف السيدة فاطمة الفهرية، وتكنى بأم البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري التي شرعت في بناء جامع القرويين في رمضان 245هـ/859م، وأختها مريم في بناء جامع الأندلسيين بمدينة فاس[55].

وقد ورد في المعيار للونشريسي العديد من المسائل المتعلقة بأحباس النساء، ومنها سؤال الفقيه القاضي بمدينة مكناسة الزيتون أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن رمانة إلى الفقيه الإمام أبي عمران سيدي موسى بن محمد بن معطي العبدوسي(ت776هـ/1374م) عن مسألة أشكلت عليه تتعلق بتنازع حول حبس امرأة لدار على ولدها لمدة أربعين عاما، وتوفيت هي ثم ولدها؛ فورثته لم يلتزموا بمدة التحبيس، وباعوا الدار قبل انصرام المدة (40سنة)[56].

وعليه من الكتابات الوقفية يتضح أن جميع طبقات المجتمع ساهمت في صناعة التاريخ وبناء الحضارة الإسلامية، كما تكشف نصوص التحبيس عن العلاقات ضمن الأسرة الواحدة وصلات المصاهرة، بالإضافة إلى الذهنية السائدة وقتئذ كاستفادة النسوة أو عدمه من ممتلكات أزوجهن وأبائهن[57].

مما سبق نخلص إلى أن الكتابات الوقفية وما تضمنته تعد مصدرا ثريا بالمعلومات، ومهما للمؤرخين والباحثين؛ فهي بمثابة تراث وطني لا يقدر بثمن ومصدر لا يستغنى عنه للتعرف على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والفكرية والثقافية والحضارية، وهي مستندات لا يمكن الطعن في صحتها مطلقا، وأن إعادة إحياء هذه الوثائق والسجلات سيؤدي حتما إلى إعادة كتابة التاريخ وقلب المفاهيم التقليدية[58].

وسنحاول إحياء واحدة من تلك الكتابات الوقفية، والمتمثلة في وقفية مدرسة العُباد بتلمسان من خلال التعريف بها وإبراز محتوياتها وأهميتها.

5- دراسة وقفية مدرسة العباد[59] بتلمسان:

5-1- التعريف بوقفية مدرسة العُبّاد: هي النص الكامل لأوقاف مدرسة العباد، وهي كتابة منقوشة على لوح رخامي أبيض، مكتوبة بالخط الأندلسي المغربي، يبلغ ارتفاع هذا اللوح 1,42م، وعرضه 0,65م، وتحتوي على 36سطرا[60]، مثبة في بدن الدعامة الأولى على يسار بلاطة المحراب العمودية داخل قاعة الصلاة لمسجد سيدي بومدين المجاور للمدرسة[61]، ونصّها الكامل يوضحه الملحق 1.

5-2- مضمون وقفية مدرسة العُبّاد: تتضمن الوقفية العناصر التالية:

- **الاستهلال:** جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما، الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين[62].

- **اسم الواقف:** "...مولانا السلطان الأعدل أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف بن عبد الحق أيد الله أمره، وخلّد بالعمل الصالح ذكره"[63]، ومنه فالواقف لم يكن شخصا عاديا بل كان سلطان، ولقب بأمير المسلمين أي خليفة للمسلمين، وهذا اللقب له أهمية كبرى ومغزى عميق، أما "المجاهد في سبيل رب العالمين" فيعني بذل الجهد في قتال الكفار والمشركين وإعلاء كلمة الله، كما تمّت الإشارة إلى أحد أسباب الوقف، وهو تخليد اسم السلطان، "وخلد بالعمل الصالح ذكره".

- **صيغة الوقف:** جاءت بلفظ صريح وهي: "...وحبّس المدرسة...، وحبّس على الجامع..."[64].

- **الأملاك الموقوفة:** المدرسة وحدّد مكانها "...المتصلة بغربيه"، أي غرب الجامع، بالإضافة إلى العديد من الجنان "جميع الجنان القصير وجميع الذي بالعباد الفوقي المشترى من عبد الواحد القصير، وجميع جنان العلوج... وجميع الجنان الكبير... وجنان الباديسي بأسفل العباد السفلي... وجنان بن فرعوش... وجنان الزهري ... وجميع جنان سعيد ابن الكماد، وهو الكاين فوق العباد العلوي وتحت ساقية النصراني... وجميع جنان القايد مهدي... الكاين بزواغ المحروسة، وجميع جنان ورثة التفريسي الكاين تحت الطريق المارين عليها للوريط[65]، بالإضافة إلى الدور والبيوت

والحانوتية والمعصرة والحمام الذي بداخل مدينة المنصورة ودارية التين، ومحرث عشرين زوجا من زيدور من قطر تلمسان[66]، وحدد أماكن تلك الموقوفات بدقة.

ومن خلال ذكر الأملاك الموقوفة يتضح ضخامة الموقوفات، وكان أغلبها أراض زراعية، بالإضافة إلى العديد من الرباع التي كانت محدودة إذا ما قورنت بالأراضي الزراعية التي جاءت قائمتها طويلة.

- **الموقوف عليهم:** المدرسة؛ فهي في حد ذاتها وقف، وفي نفس الوقت موقوف عليها، بالإضافة إلى الجامع حيث جاء في الوقفية: "... وحبّس على الجامع المذكور والمدرسة المذكورة"[67]، إلى جانب طلبة العلم الشريف والمدرسين والفقراء والحجاج المقيمين والواردين على زاوية العباد التي هي الأخرى تعد وقفا، وعلى ساكني المدرسة.

من خلال عرض محتويات وقفية مدرسة العباد يتضح بأنها اشتملت على العناصر الأساسية للوقفية، والأركان الرئيسة للوقف، في حين لم تتضمن اسم الناظر ولا التاريخ ولا الخاتمة، ومع ذلك تقدم معطيات كثيرة في جميع الميادين نحاول إبرازها من خلال تحليلنا لها.

3-5- تحليل مضمون وقفية العباد: تحمل وقفية مدرسة العباد دلالات متنوعة، منها:

- نص وقفية العباد يتضمن في نفس الوقت أمر بالبناء "أمر ببناء هذا الجامع المبارك مع المدرسة المتصلة بغربيه"، وهنا نتساءل متى كان البناء؟ وهل تم بناء كل من الجامع والمدرسة في نفس السنة؟ فالوقفية لم توضح ذلك، وبالرجوع إلى النص التأسيسي للجامع فإنه شُيِّد عام 739هـ/1339م[68]، وقد جاء وصفه عند ابن مرزوق حيث قال: "اشتمل عل الوضع الغريب، وسقفه كلها أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة... واشتمل على المنبر العجيب الشكل... وصومعته في غاية من الحسن والإتقان"[69]، أما بناء المدرسة فكان سنة 747هـ/1348م[70]، وعليه يمكن لنا أن نتساءل لماذا تأخر بناء المدرسة عن المسجد؟ أم أن سنة 747هـ هي تاريخ الانتهاء من البناء، وسنة 739هـ هي بداية البناء؟ كما حددت الوقفية موقع المدرسة، وبذلك تؤكد ما ذكره ابن مرزوق: "وبالعباد ظاهر تلمسان وحذاء الجامع"[71].

وأشارت الوقفية إلى شخصية الواقف وعينته تعينا دقيقا، وذكرت اسمه وألقابه "السلطان الأعدل أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ولهذه الألقاب دلالة تاريخية، وهي تعني لقب الخليفة، وليبين أنها مستقلة عن المشرق، وأنه هو حامي الدين والمحافظ على دوام الشريعة في بلاده، وذكر اسم الواقف يؤكد ما جاء في المصادر حول مؤسس المدرسة، من ذلك ما ذكره ابن مرزوق في مسنده أن أبا الحسن أنشأ في كل بلد من بلاد المغرب الأوسط مدرسة...، وبالعباد حذاء الجامع[72].

ومن ترجمة الواقف يتضح بأنه سلطان مريني حكم من سنة 731هـ/1330م إلى سنة 752هـ/1351م[73]، وهذا يقدم دلالة تاريخية مفادها التوسع المريني على المغرب الأوسط، ويوضح اسم الواقف أن له شخصية ومكانة مرموقة في المجتمع، وترصد لنا جانبا من السياسة التعليمية لبني مرين بصفة عامة وللسلطان أبي الحسن خاصة، وتعرفنا على علاقة السياسة بالعلم، والمكانة التي تبوأها أهل العلم خلال فترة حكمه. كما يستشف أن مدرسة العباد تتميز بخاصيتين: أنها مدرسة سلطانية رسمية لأن مؤسسها سلطان، ومدرسة وقفية في آن واحد؛ لأنها في حد ذاتها وقف كما أنها تعتمد على الأملاك التي حبست لأجلها.

ومن خلال عرضنا للأملاك المحبسة وطبيعتها، يتضح بأنها كانت ضخمة ومتنوعة، وكلها من أوقاف السلطان، وذلك ما ضمن استقلاليتها المالية وديمومتها، وكانت لها قدرة على الصمود، وسمت بعمارتها وفنونها، وهذا يؤكد ما جاء به ابن مرزوق: "... وكلها (المدارس) قد اشتمل على المباني العجيبة والصنائع الغريبة والمصانع العديدة، والاحتفال في البناء والنقش والجص والفرش... مع ما ينضم إلى ذلك من الأحباس التي تقام بها ويحفظ بها الوضع، ومما يصلح به البناء ويجري به المرتبات على الطلبة والعونة والقيم والبواب والمؤذن والإمام والناظر والشهود والخدام[74].

ويستشف من أنواع الأوقاف الواردة في وقفية مدرسة العباد أن المنطقة كانت تعتمد على الزاراعة (كثرة الجنان)، مثلا زراعة الزيتون والتين، وهذا ما أدى إلى وجود المعصرة وهو ما يعني أن هناك صناعات بالمنطقة، إضافة إلى الحوانيت وكل ذلك نشط التجارة، كما وجدت حرف أخرى كحرفة البناء "أمر ببناء"، وما يرافق ذلك من

هندسة ونجارة وحدادة وغيرها، مما يوحي إلى أن المنطقة كانت تشهد نشاطا إقتصاديا متعدد الجوانب.

كما كان من ضمن الأوقاف الحمام الذي هو من مظاهر تحضر المدن، وهذا يوحي لوجود العديد من الحرف والمهن التي ترافق الحمام في المنطقة، فمثلا كل حمام يوفر الشغل لسبعة أفراد (الحمامي، والناظوري أو الوقاف، المدلك، المزين، الوقاد، الزبال)، وإذا اعتبرنا أن كل عامل يجر وراءه أسرة تتألف على الأقل من ثلاثة أفراد، وأنه يوجد عدة حمامات؛ فهذا يقدم أرقاما كبيرة ومعلومات غنية، مما يفتح أمام الباحث في التاريخ الاقتصادي أو الاجتماعي آفاقا جديدة من آفاق البحث، بخاصة في مواضيع لها صلة وثيقة بهذا الفضاء، كالبحث في أصول بعض المواد التجميلية الطبيعية والاصطناعية التي كانت رائجة كصناعة الصابون والعطور والنسيج (المآزر) إلى غير ذلك[75].

- كما يتضح من الوقفية بأن جل الأراضي والجنان الموقوفة اشتراها أبو الحسن، وهذا يوحي بأن تجارة العقار كانت نشطة، وأن الإنتاج الزراعي وافر وأهمه الحبوب، ويظهر ذلك من ذكر وحدة الكيل التي كانت تستعمل أثناء التعاملات "الصاع"[76]، بالإضافة إلى التين والزيتون، ويؤكد ذلك يحي بن خلدون حيث يقول: "يوجد بخارجها (تلمسان)... الحدائق الغالب، بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من الفواكه والرمان، والزيتون والتين"[77]، ويمكن الإشارة إلى أنه تم ذكر عقود الشراء التي تمت بين السلطان أبي الحسن المريني وملاك الأراضي والعقارات، محاولا توضيح الصفة الشرعية التي تم بها الحصول على هذه الأملاك[78].

وتعرفنا الوقفية على العديد من أسماء الأشخاص والعائلات، مثل: علي بن محمد المراني، عبد الواحد القصير، الحاج محمد بن حويته، وداود بن علي ولده علي، والباديسي وولديه عبد الواحد وعيسى، وسعيد بن الكماد وورثته، والتفريسي وورثته... ومن ذلك يمكن القول إن المنطقة كانت آهلة بالسكان، ونظام الإرث كان محترما على ما يبدو، وجل الأسماء كانت للرجال ما عدا "وورثة أبيه وأمه وعمتهم ميمونة"[79]، لكن تعذر علينا إيجاد ترجمة لهؤلاء، وما دوافع بيع أراضيهم للسلطان أبي الحسن، أهي الحاجة الاقتصادية؟ أم أن ذلك كان تحت الضغط؟.

وتطلعنا الوقفية على طبقات وفئات المجتمع مثل فئة الطلاب والطلاب الداخليين (الساكنين بالمدرسة)، والمُدرِّسين، وفئة الفقراء التي ذكرها ابن مرزوق في مسنده قائلا: "... وأعطى (أبو الحسن المريني) لضعفاء أهل تلمسان 12 ألف دينار و12 ألف كساء، ومن الطعام مطامير لا تُحصى كثرة...، عدا ما وصل لكبار أهلها من الفقهاء والصلحاء والكتاب وذوي الوجاهة من الناس"[80]، أما فئة الحجاج المقيمين والواردين عليها أمثال الشيخ أبي زيان عريف بن يحيى[81] والقاضي أبي إسحاق إبراهيم بن أبي يحي وغيرهم[82]، وازدادت هذه الفئة في ظل عناية السلطان أبي الحسن المريني بها حيث كان في كل سنة يعين ركبا متوجها للحج، ويمهد الطريق في سبيل ذلك[83]. وعليه يتضح تنوع فئات المجتمع ووظائفهم، وتفاوت مستوياتهم، وتبادلهم التأثير والتأثر.

كما تبرز الوقفية اهتمام السلطان أبي الحسن بالعلم وأهله، وبالطبقات الهشة في المجتمع والعامة، وكل ذلك لأجل كسب تأييدهم لمشروعه التوسعي، وتثبيت مشروعية حكمه باعتباره أمير المؤمنين(خليفة)، مع العلم أن بني مرين لم يعتمدوا في بناء دولتهم على دعوة دينية للوصول إلى الحكم، لذلك بادروا إلى القيام بمجموعة من التدابير والإجراءات لبناء قاعدة شعبية، وكسب تأييد الناس لمشروعهم، ومن ذلك تشيد أبي الحسن لمشاريع ضخمة خدمة للعلم وأهله، وفي مقدمتها المدارس العلمية.

ومن وجود الطلاب الساكنين بالمدرسة يستشف بأن المدرسة كانت متميزة في تقديم العلوم عن باقي المدارس، وأنها كانت توفر الظروف للطلبة حتى يتفرغوا للدراسة، وأنها كانت بمثابة جامعة، وأنه في أغلب الأحوال كان التعليم يتم في الكتاتيب والمساجد، ولمّا يتفوق الطالب يواصل دراسته العليا بمثل مدرسة العباد، أما من وجود الحجاج فيوحي على انتشار ظاهرة الرحلة إلى الحج، وأن موقع المدرسة استراتيجي؛ فالحجاج الوافدون عليها عند ذهابهم وعودتهم كانوا يقيمون بها، وكانت لهم فرصة الاحتكاك بعلماء المدرسة وطلبتها؛ فأثروا وتأثروا وساهموا في ازدهار الحياة العلمية والثقافية بتلمسان، بخاصة وأن هؤلاء الحجاج كانوا من مناطق مختلفة من

داخل وخارج المغرب الأوسط، وهذا ما جعل سند التعليم في المدرسة يجمع بين روافد مشرقية ومغربية.

كما أن موقع المدرسة بالعباد نظرا لأهميته كمركز ديني واجتماعي لاحتوائه على ضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب (ت594هـ/1198م)، وكذا فترة الطفولة والشباب التي قضاها السلطان أبو الحسن المريني هناك مؤديا للصلوات ومستمعا لما يلقى في أحد مساجده بالعباد السفلي، وزائرا للصلحاء والأموات والأحياء بالعباد الفوقي[84].

وتذكر الوقفية المؤسسات الدينية والعلمية الموجودة في المنطقة ومنها المدرسة والجامع، أما الزاويا فكانت أكثر من زاوية واحدة حيث جاء في الوقفية: "إطعام الطعام بزاوية العباد...، وجميع أرض جنان ورثته التفريسي الكاين غربي الزاوية المشتراة منهم"[85]، وعليه فتنوع المؤسسات التعليمية يعني بأن المنطقة عرفت حركة علمية وثقافية، وكان للمدرسة دور في ازدهارها، بخاصة وأنها ضمّت كبار المدرسين مثل ابن مرزوق الخطيب(ت781هـ/1379م)[86]، وابن خلدون عبد الرحمن، لذلك أصبحت تسمى بالمدرسة الخلدونية، مما جعلها تساهم في تكوين أجيال من الطلبة وكبار العلماء.

ويشير نص التحبيس أن مداخيل الأوقاف مشتركة تستفيد منها المدرسة والزاوية والمسجد، وما يلفت الانتباه هو أن وقفية مدرسة العباد كتبت على مادة صلبة، وأن مكان تثبيتها داخل قاعة الصلاة لم يكن عشوائيا وإنما للاحتياط على سلامتها، ولإضفاء المزيد من الهالة والاحترام عليها، وكل ذلك للترويج إلى ما جاء فيها من معلومات ونشر مضامينها بين الناس[87]، وبذلك يمكن اعتبارها وسيلة إعلامية، وتمثل شكلا من أشكال الدعاية لحكم بني مرين، حتى يضفوا على حكمهم صبغة شرعية ينالون بها رضا الناس[88].

كما ترشدنا الوقفية إلى العديد من أسماء الأماكن مثل باب كشوط وباب الحديد، والتي ورد ذكرها عند يحي بن خلدون حيث قال: "ولها خمسة أبواب، وغربا باب كشوط"[89]، ومدينة المنصورة وساقية النصراني، والوريط وتلمسان والعباد العلوي والعباد السفلي، وقلعة بني معلى، وكلها مواقع لها دلالات وجديرة بالبحث،

ومن خلالها يمكن التعرف على طبوغرافية المنطقة، وأن المدرسة كانت خارج تلك الأبواب.

أما وجود الأبواب فدليل على أن المنطقة كانت محصنة بها حائط وتتخلله أبواب حتى يسهل حمايتها من الاعتداءات، كما أنها تنبئ بتوتر علاقات بني عبد الوادي مع بني مرين المتوسعين على المنطقة.

مما سبق نخلص أن وقفية مدرسة العباد غنية بالمعلومات والمعطيات التي يحتاج إليها المؤرخ والباحث لتاريخ المدرسة خاصة، وتاريخ المنطقة بصفة عامة، وفي شتى المجالات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية...، ورغم ذلك فالوقفية لوحدها غير كافية للإلمام بجميع جوانب البحث في مدرسة العباد نظرا لبعض المآخذ التي سجلناها، والتي نسعى إلى توضيحها من خلال نقدنا للوقفية.

4-5- نقد لوقفية مدرسة العباد: من خلال تحليلينا لوقفية مدرسة العباد سجلنا بعض النقائص نوجزها في مايلي:

- لم توضح الوقفية تاريخ تأسيس المدرسة، ولماذا بناء المدرسة جاء متأخرا عن بناء الجامع بحوالي ثماني سنوات[90]، رغم أن الوقفية تتضمن أمر البناء الخاص بالجامع والمدرسة معا "أمر ببناء الجامع مع المدرسة[91]

- لم تبين طرق الدراسة بها ولا مناهجها، ولا أنواع العلوم المدرسة بها، فهي ذكرت "العلم الشريف" من غير تحديد ما المقصود به؟

- أغفلت الوقفية ذكر شروط الالتحاق بالمدرسة، سواء بالنسبة للطلبة أو المدرّسين بها، وكيفية الاستفادة من السكن ومن هم أولى به؟ والتي وضحها الونشريسي في معياره[92]

- أوضحت الوقفية وجود الزراعة، لكن لم تذكر أو تشر إلى النظم التي كانت سائدة حول كيفية استغلال تلك الأراضي الزراعية، ولا وطرق السقي، ولم توضح كمية الإنتاج.

- لم توضح الوقفية من كتبها، أهو السلطان أبو الحسن أم كاتب آخر؟ خاصة وأننا ضمن الوقفية نجد مرة ضمير الغائب: "حبّس المدرسة..."، ومرة أخرى نجد ضمير المتكلم: "...اشترينا... جميع بيتي الأرض المبني..."[93].

- جاءت الوقفية على فقرة واحدة من أولها إلى آخرها، وهذا ما يشكل بعض اللبس على القارئ.
- لم تحدد الوقفية من يتولى إدارة هذه الأوقاف أي الناظر.
- لم تتضمن الوقفية الخاتمة، وإنما بقيت مفتوحة.
- بيّنت الوقفية أن المدرسة غرب الجامع، لكنها لم توضح أهي متصلة به مباشرة أم يوجد بينهما فاصل؛ فالدراسات تشير إلى أنها مفصولة عنه بممر ضيق[94].
- لم تبين عدد حجرات المدرسة، ولا مواد البناء ولا أنواع الزخرفة التي زينت بها.
- لم توضح الوقفية موقوفات أخرى حبّسها السلطان أبو الحسن على المدرسة كالكتب، والتي ذكرها ابن مرزوق: "... مع ما حبس في جلها على أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة"[95].

رغم المآخذ المسجلة على وقفية مدرسة العباد، إلا أنها تبقى مصدرا جد أساسي ومهم للباحثين والمؤرخين، نظرا لما تقدمه من معطيات ودلالات في جميع الميادين، ولا تزال شاهدة على تاريخ المنطقة إلى يومنا هذا.

خاتمة: من خلال دراستنا نخلص إلى الاستنتاجات التالية:

- للكتابات الوقفية أهمية بالغة لحفظ الوقف ودوام استمراره من جهة، وللمؤرخ من جهة أخرى، نظرا لما تقدمه من معطيات ومضامين متنوعة؛ فهي تعد المادة الخام التي يصوغ منها المؤرخ نسيجه في مختلف الميادين لتخطيط المدن ودراسة التطور العمراني، وللدارسين في المجالات الاقتصادية كالزراعة والصناعة والتجارة، وما يُصاحبها من تطور للقيمة المالية والعملات، وللمهتمين بالحركة الثقافية، والحياة الدينية والسياسية والاجتماعية، وللباحثين في أنواع الوظائف وغيرها من المجالات المختلفة، كما تعدّ من المصادر الصادقة والنزيهة فهي بعيدة عن تأثير الأهواء والرغبات، ويجد الباحث بين ثنايا سطورها من الحقائق ما يسد به الثغرات الناقصة في كتب التاريخ العام، ويستكمل حلقات مفقودة منه، ويؤكد معلومات معروفة، لذلك وجب تسليط الضوء عليها ودراستها والاستفادة منها في كتابة البحوث التاريخية، بخاصة وأنها تفتح آفاقا جديدة في العديد من المجالات والتخصصات، ورغم أهمية الكتابات الوقفية كمصدر تاريخي، إلا أنها لا تقدم الصورة الكاملة للبحث، مما يستلزم الرجوع إلى مصادر التاريخ الأخرى، وهذا ما يعني وجود تكامل بينها وبين بقية المصادر.

وتُعدُّ وقفية مدرسة العباد نموذجا من تلك الكتابات الوقفية، حيث قدمت معلومات غزيرة يمكن للمؤرخين الاستفادة منها في جميع مجالات البحث الخاص بالمنطقة. مع الرجوع إلى المصادر التاريخية لنفس الحقبة (القرن8-9ه) حتى تكتمل جوانب الدراسة.

لا تزال وقفية العباد شاهدة على حقبة تاريخية مهمة من تاريخ تلمسان خاصة والمغرب الأوسط عامة، كما أن البحث فيها يبقى متواصلا للإجابة عن عدة تساؤلات منها: ما مصير الأملاك المحبّسة على مدرسة العباد في يومنا هذا؟ بخاصة ونحن نعلم أن المدرسة اليوم خالية من طلاب العلم ومن المدرسين الذين وقّف لأجلهم، هذا التساؤل وغيره نسعى للإجابة عنه لاحقا.

الملحق رقم1: نص وقف مدرسة العباد (أبي مدين): "بسم اللّه الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلّم تسليما، الحمد للّه رب العالمين والعاقبة للمتقين، أمر ببناء هذا الجامع المبارك مع المدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان الأعدل أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف بن عبد الحق أيد الله أمره، وخلّد بالعمل الصالح، وحبّس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه، وحبّس على الجامع المذكور والمدرسة المذكورة من الجانب العلي نفعهم الله بذلك جميع الجنان القصير الذي بالعباد الفوقي المشترى من ولدي عبد الواحد القصير، وجميع جنان العلوج المشترى من علي بن المراني، وجميع الجنان المعروف بابن حويته الكاين بزواغة المشتري من ورثة الحاج محمد بن حويتة، وجميع الجنان الكبير والدار المتصلة من جهة غربيه المعروف ذلك واسم داود بن علي المشتري من ورثته وهو بأسفل العّباد السفلي، وجميع الرقعتين الموروثتين أيضا عنه، واشترينا من ولده علي وتعزو إحداهما بابني أبي اسحاق والثانية بابن الصلاة المغروس منها وغير المغروس، وجميع الجنان المعروف بجنان الباديسي الموروث أيضا عنه المشترى من يحي بن داود المذكور وهو بأسفل العباد السفلي، وجميع الجنان المسمى بن قرعوش القريب من جنان الباديسي المذكور الموروث عنه، واشترى من ولديه عبد الواحد وعيسى، وجميع غروس الأربعة الفوقي منها يعرف بابن مكية والثاني بمحمد بن السراج والثالث بفج المدلسي والرابع بابن الفدا قيصا، وهي التي ورثت أيضا عنه، واشتريت من جميع ورثته، وجميع دارية التين بجوفي مسجد العباد السفلي المشترات أيضا منهم، والنصف الواحد من جنان الزهري مع جميع بيتي الأرض المبني بغربه وذلك بجهة الوريط، وجميع بيتي الأرض المبني بقلعة بني معلى خارج باب كشوط من تلمسان حرسها الله، وجميع الحمام المعروف بحمام العالية الذي بداخل المدينة المذكورة بجهة باب الحديد مع حانوتية متصلة به على يمين الخارج من بابه القبلي، ودويرته المتصلة به من جهة جوفه، ومعصرته المحملة

على أسطوانة، والنصف الواحد من الحمام القديم الذي بداخل مدينة المنصورة حرسها الله، ومحرث عشرين زوجا من زيدور من قطر تلمسان المذكورة برسم إطعام الطعام بزاوية العباد عمرها الله للفقراء والحجاج المقيمين والواردين عليها، وأثره عشرة أزواج بالموقع المذكور برسم ساكني المدرسة المذكورة بحساب خمسة عشر صاعا للطالب الواحد في كل شهر، وجميع جنان سعيد بن الكماد المشترى من ورثته، وهو الكاين فوق العباد العلوي وتحت ساقية النصراني، وجميع جنان القايد مهدي المشترى من ورثته الكاين بزواغة المحروسة وجميع جنان التفريسي الكاين تحت الطريق المارين عليها للوريط المشتري من ورثته، وجميع أرض جنان ورثة التفريسي المذكور الكاين غربي الزاوية المشتراة منهم، وبقية الرحاب المتصلة بالجامع المذكور الباقية من الجنان المريد بعضه في الجامع المشتري من ورثة محمد بن عبد الواحد ومن ورثة أبيه وأمه وعمتهم ميمونة، ولم يتبق لورثتم حق لا مطلب".

الملحق رقم 1- نقلا عن عبيد بوداود- انتشار ظاهرة الأوقاف في المغرب الإسلامي ما بين القرنين (7-9هـ/13-15م)، ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية- أطروحة دكتوراه- جامعة وهران (1426-1427هـ-/2005-2006م)- ص347-348. (الملحق الخامس)

الملحق رقم 2- صورة لرخامة التحبيس لمدرسة ومسجد العباد. تصوير شخصي-

الهوامش:

1-ابن منظور-لسان العرب-دار صادر-بيروت-مج 9-ص359.------2--الفيروز آبادي-القاموس المحيد-تحقيق مكتب تحقيق التراث إشراف محمد نعيم العرقسوسي-مؤسسة الرسالة-ط8-2005م-ص57.-------3- مجمع اللغةا العربية -المعجم الوسيط—مكتبة الشروق الدولية- ط4-سنة2004م-ص152

4-أنظر تلك التعاريف عند: -السرخسي شمس الدين –كتاب المبسوط-دار المعرفة –لبنان-ج12-ص27/.-الرصاع ابو عبد الله – شرح حدود ابن عرفة الموسوم بالهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الامام ابن عرفة- تحقيق أبو الاجفان والطاهر المعموري – ط1-ج1-ص539/-المناوي – التوقيف على مهمات التعاريف-عالم الكتب –القاهرة-1990-ص.340

5- أيمن محمد العمر-الوقف ودره في التنمية الإقتصادية –مركز واقف(عبر الانترنت)-ص4.
6-ابن قدامة- المغني-اعتنى به وخرج أحاديثه رائد بن صبري بن أبي علفة- بيت الافكار الدولية –لبنان -2004م- ج 1ص1312/.- الكبيسي محمد عبيد-أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية-مطبعة الارشاد-بغداد-1398ه/1988م-ج1-ص.88
7-البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل-صحيح البخاري-ابن كثير –دمشق-بيروت-ط1-1423ه/2002م-ص675.---- 8-. رواره الترميذي-كتاب الاحكام:باب الوقف،ص241-رقم 1375-وقال :حديث حسن صحيح -----9- سورة آل عمران-الآية.91
10-مسلم –صحيح مسلم –تحقيق فؤاد عبد الباقي-بيروت-دار الإحياء-ج3-ص1255.----- --11- انظر :الكبيسي- أحكام الوقف - ص312-327----12-الكبيسي-نفسه-352وبعدها.-- -13- نفسه-ص397وبعدها.------- 14-ابن قدامة- المغني - ج8ص189./الكبيسي –نفس المرجع-ص150.-------15- سورة البقرة-الآية282.---16-السعدي عبد الرحمن-تفسير الكريم المنان في تفسير القرآن-مج1-ص201--------17- رواره الترميذي-كتاب الاحكام:باب الوقف،ص241-رقم 1375-وقال :حديث حسن صحيح---.18- حبيب غلام ناملياتي -توثيق الوقف حماية للوقف والتاريخ وثائق الأوقاف السنية بمملكة البحرين (دراسة تحليلية)-الأمانة العامة للأوقاف –الكويت ط1-الكويت -ص56--------19- سورة القلم الأيةرقم47.--- ---20 -القلقشندي-صبح الأعشى في كتابة الإنشا-دار الكتب المصرية-القاهرة-1340ه/1922م-ج1-ص51.- 21-ابن خلدون عبد الرحمن-مقدمة ابن خلدون –ج1- ص524.--------- 22-أنظر:الونشريسي- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والاندلس والمغرب –خرجه جماعة من الفقهاء باشراف محمد حجي- وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية –المملكة المغربية-الرباط ودار الغرب الاسلامي –بيروت-1401ه/1981م –ج7-ص293،ص123-------23- محمد مرسي-الوثائق الوقفية ودورها في إثراء تاريخ الحضارة الإسلامية-ملتقى فقه الأوقاف وعقود الاوفاق-ص3(مقال من النت) ----24-ابن القيم الجوزية- الطرق الحكمية-في السياسة الشرعية—تحقيق نايف بن أحمد الحمد –اشراف بكر بن عبد الله بوزيد –دار عالم الفوائد –مج 1ص562.------25 - المصدر نفسه-ص560------- --26-ابن القيم-نفس المصدر-مج1-ص561 - 27-ابن القيم-الطرق الحكمية-ص565.--- 28-عمر الجيدي-الحوالات الحبسية مصدر أساسي للتعرف على التاريخ الحضاري للمغرب –مجلة دعوة الحق –وزارة الاوقاف والشؤون السلامية – الرباط-العدد242-ربيع1-نوفمبر1984م-بدون صفحة.(مقال من النت).---29- -حبيب غلام ناملياتي-توثيق الوقف-ص38(الهامش).-------30 -عبيد بوداود- إنتشار ظاهرة الأوقاف في المغرب الاسلامي ما بين القرنين 7و9الهجريين /13و15م ودورها في الحياة الإقتصادية والجتماعية –أطروحة دكتوراه – جامعة وهران – 1427ه/2006م- ص82/ نص وقفية ابن خلدون نقلا عن:السعيد بوركبة-دور=الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية –وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية -1417ه/1996م-ج2-ص281.----31--ياسين بودريعة-أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والباليك-رسالة ماجستير-جامعة بن يوسف بن خدة-2007م-ص223.---32-عبيد بوداود –المرجع السابق-ص85.------33 سبق تخريجه-صحيح البخاري-ص.675
34-ابن الأحمر-روضة النسرين في دولة بني مرين-المطبعة الملكية-الرباط-1369ه/1969م-ص23-24------35--نقلا عن السعيد بوركبة-المرجع السابق-ص83.---36-عبيد بوداود- المرجع السابق-ص85.--- --37- المرجع نفسه-نفس الصفحة.-- -38 -عبيد بوداود –المرجع السابق-ص85.---39-الونشريسي –المعيار-ج7-ص149.---40-الونشريسي-المصدر نفسه ج7-ص293.--------41- انظر بعض النماذج عند:ياسين بودريعة-المرجع السابق-ص223. -سليم هاني منصور-الوثائق الوقفية وأهميتها ودورها في كتابة التاريخ-دار الكتب العلمية-بيروت-2017-ص34. 42---43--سليم هاني-نفس المرجع-ص43.---44-سعيدوني ناصر الدين- دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية-دار الغرب الاسلامي-بيروت-ط1-2011م-ص184.-------- -45- سليم هاني منصور-المرجع السابق-ص65.----------46 --ابراهيم بن محمد المزني-الوقف وأثره في تشييد بنية الحضارة الاسلامية –ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية-مكتبة الملك عبد العزيز-المدينة المنورة-محرم 1430ه-ص16.----- 47الونشريسي—مصدر سابق-ج7-ص347--------48-الونشريسي-نفس المصدر-ص07.----------49 -نفس المصدر-ص17- -----50-سليم هاني منصور-مرجع سابق –ص102--- 51- التنسي محمد بن عبد الله- تاريخ بني زيات ملوك تلمسان-مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان-تحقيق محمود أغا بوعياد-موفم للنشر الجزائر-2011م-ص211.--- 52- ويظهر ذلك من أن العديد من الواقفين أوقفوا في مناطقهم وخارجها،مثلا:السلطان أبو الحسن المريني" أجمع على كتابة نسخة أنيقة من من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف...وأخرج من خزائنه أموالا عينا لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها..."أنظر:ابن خلدون عبد

الرحمن-العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- ضبطه خليل شحادة- مراجعة سهيل زكار-دار الفكر-بيروت-1431هـ/2000م-ج7-ص351. ---53--حبيب غلام ناماليتي-المرجع السابق-ص93. ---54- سليم هاني منصور-المرجع السابق-ص105. -55-الجزنائي علي -جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس تحقيق عبد الوهاب ابن منصور-المطبعة الملكية-الرباط-ط2-1411هـ/1991م-ص45--- 56-الونشريسي-المصدر السابق-ج7-ص14./هناك أمثلة أخرى أنظر:المصدر نفسه-ص253،286،188،103. 57-عائشة غطاس- سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر-العهد العثماني-مجلة إنسانيات –العدد3-1998-ص69-89.----- 58 - ناصر الدين سعيدوني- دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية-دار الغرب الاسلامي-بيروت-ط1-2001م-ص196. 59-العباد:"مدينة صغيرة على شبه ربض،تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان،وهي كثيرة الأزهار،وافرة السكان والصناع،وبها دفن ولي كبير،ذو صيت شهير،يوجد ضريحه في مسجد ...ويسمى سيدي مدين،وهناك أيضا مدرسة جميلة جدا وفندق لايواء الغرباء أسسها بعض ملوك فاس بني مرين"-حسن الوزان –وصف إفريقيا –ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر-دار الغرب الاسلامي –ط2-1983-ج2-ص24.--- 60-الملحق رقم1 نقلا عن -العربي لقريز- مدارس أبي الحسن المريني،مدرسة سيدي أبي مدين نموذجا،دراسة أثرية وفنية-رسالة ماجستير-جامعة تلمسان-2000-2001م-ص133/الملحق رقم 2-صورة لوقفية العباد.---61-صالح بن قربة وأخررون-تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر-المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954-الجزائر-2007م-ص171---62-ينظر الملحق 1------63--ينظر الملحق1 ----- 64-ينظر الملحق1 -----65-لوربط:شلالات بتلمسان ،وهي أعلى شلال في الجزائر بتلمسان التي تبعد عنها بنحو ستة أميال وهي واقعة على الطريق الذاهبة إلى مدينة سيدي بلعباس- ولقد تغنى به مفدي زكرياء في إلياذته.ينظر: شاوش محمد بن رمضان-باقة السوسان في التعريف بحاضرة عاصمة دولة بني زيان-ديوان المطبوعات الجامعية-2011-ج1-ص36.--- 66-الملحق 1. ----67-الملحق 1-----68-وليام وجورج مارسي-المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان-تقديم وترجمة :مراد بلعيد وأخرون-شركة الأصالة للنشر والتوزيع-الجزائر-ط1-1432هـ/2011م-ص332 -----69-ابن مرزوق أبو عبد الله محمد-المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن-دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا-الشركة الوطنيةللنشر والتوزيع-الجزائر-1401هـ/1981م-ص407.-- -- 70-وليام جورج وارسي –مرجع سابق-ص 385/وهناك دراسات تذكر التأسيس سنة748هـ منها:عبد العزيز قربان-التعليم بتلمسان في العهد الزياني-جسور للنشر والتوزيع-الجزائر-1432 هـ/2011م-ط1-ص120-----.71 -ابن مرزوق-المصدر السابق-ص406/ينظر أيضا:حسن الوزان- وصف إفريقيا--ج2-ص24.--- 72-ابن مرزوق-المصدر السابق-ص406.- --73-ابن الأحمر –المصدر السابق-ص26،25. --- -74- ابن مرزوق-المصدر السابق-ص406.---75--سليم هاني منصور-المرجع السابق-ص66- - 76-الصاع:وهو مكيال من أربعة أمداد نبوية،مع العلم أن الصاع الشرعي يساوي أربع حفنات.،والمد هو رطل وثلث بالبغدادي ينظر:محمود عبد الرحمن عبد المنعم –معجم المصطلحات والالفاظ الفقهية- دار الفضيلة للنشر-القاهرة-ج2-ص 352/فؤاد طوهارة –المجتمع والإقتصاد في تلمسان خلال العصر الزياني(8-9هـ/13-18م)-دراسات تاريخية- العدد6-2014-ص88.-- 77- يحيى بن خلدون- يحي بن خلدون-بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد-مطبعة بيير فونطانا – الجزائر -1903-ص10. --- -78- عمارة فاطمة الزهرة-المدارس التعليمية بتلمسان خلال القرنيين 8و9هـ/14و15م-رسالة ماجستير –جامعة وهران-2010م-ص78 ---79- ينظر الملحق 1--- -80- ابن مررزق-المسند-ص193،192 ----81-نفس المصدر-ص367-----82—نفس المصدر-ص453، 454------83-ابن مرزوق-المسند-ص453،385، 454---------- -84-صابرة خطيف- فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية(633-791هـ/1235-1388م)الجهازي الديني والتعليميرسالة ماجستير-جامعة الامير عبد القادر-قسنطينة-2003-2004- ص81--------- -----85-ينظر الملحق رقم1. --------86- ينظرترجمته في :ابن مريم –البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان-تحقيق عبد القادر بوباية-دار الكتب العلمية-بيروت- ط1-2014-ص339- 349 .---------- 87- الحاج موسى عوني-دور الوقف في دعم الحركة العلمية بمدينة فاس خلال العصر المريني- سلسلة المقالات الوقفية(وقف اونلاين)ص4. --------88-صالح بن قربة وأخرون-مرجع سابق-ص173.. --- -90-يحي بن خلدون-المصدر السابق-ج1-ص20 - ---- ------ 91- ينظر الملحق1. --------92-الونشريسي –المصدر السابق- ج7-ص7 -------93- الملحق1--- --- - 94-وليام جورج-مرجع سابق-ص379.---------- -95- ابن مرزوق –مصدر سابق-ص407.